

يكون قد أصغى إلى بعض أصوات الحيوانات وقلدها، بغية استئلافها وتدجينها أو قنصها، أكثر من اصغائه إلى أصوات أولاده الذين هم في حوزته؟ ألا يكون قد بنى ألفاظاً من أصوات الحيوانات أولاً ثم استعارها للتعبير عنها يقترن بالإنسان على وجه التشبيه والمجاز؟ لا شك في أنه بنى من أصواته ألفاظاً ودل بها على ما اقترن به هو، ثم استعادها للتعبير عن مدلولات حيوانية وشيئية تشابه مدلولاتها الإنسانية، ولا شك في عكس هذا الأمر كذلك. كل الصعوبة قائمة في فرز وتعريب الأصول الصوتية من بعضها وتعيين حقولها بالتحديد.

إذا كان الحيوان وسائر الكائنات هامة بالنسبة للإنسان، فذلك يرجع إلى أن الإنسان يهتم بما هو خارج عنه بقدر أهمية هذا الخارج بالنسبة إليه، أي أن أهمية الإنسان هي مصدر باقي الأهميات. وإذا كان عليه أن يقلد أصوات الحيوانات بصوته هو، فلا بد له من العودة إلى إمكانيته وذخيرته واستعداداته الصوتية. فالإنسان يكون صغيراً وينغم زمناً طويلاً نغمة الاستثناس (غ غ غ غ) أو (غنن). وعندما يحتاج إلى محاكاة أصوات عصفير أو أغصان أو ماء... مما يشبه هذه الغنة، فإنه يلجأ إلى هذه الغنة المخزونة في أعصابه والتي تمرست على تحقيقها بعض عضلات منطقه كي يحكي بها الأصوات الطبيعية اللا إنسانية التي احتوت على عناصر صوتية بارز في سمعها إنما موجودة في مخزونه الصوتي وإمكانيته الصوتية، إن لم يكن مدركاً أيضاً أنها بارزة في غنة أولاده وغنته هو يوم كان صغيراً أو وهو كبير. في هذه الحال تتدمج المحاكيات والألفاظ حسب تدمج أصولها الصوتية: غنة الأولاد، غنة الذباب، غنة الطائر، غنة الغزال. وهكذا نجد أن تطابق الأصول الصوتية يؤدي إلى ما سماه فقهاء اللغة: «الجنساس»